

الأزمة المعرفية الغربية و ضرورة تبني منهجية بديلة

بوشقورة هيبه

أستاذة كلية الحقوق و العلوم السياسية

جامعة "مولود معمري" تيزي وزو

الملخص:

تحاول هذه الدراسة الوقوف على أزمة المعرفة الغربية و التي ما فتئت تبرز آثارها على مختلف الأنساق المعرفية ، أين يعد علم السياسة من بين الأنساق المعرفية و الذي شهد أزمة ، خاصة مع تأثير الاتجاه الوضعي على مناهجه من جهة و قدراته التفسيرية من جهة أخرى. لقد بات من الواضح اليوم البحث عن منهجية معرفية بديلة ، تتخذ من القرآن الكريم و السنة مرجعيتين لتأصيل المنهجية في بعدها الإسلامي و الاعتماد على التراث السياسي الإسلامي لتثوير المعرفة السياسية التراثية مع مستجدات العصر.

الكلمات المفتاحية: المنهجية الغربية ، التزعة الوضعية ، التزعة السلوكية ، المنظور القيمي

Le résumé :

Dans cette article, nous essayons de mettre en critique la problématique de connaissances occidentales, notamment après son influence aux différents disciplines, la ou les sciences politiques ont confronte une crise autour de ses méthodes d'une part et ses potentiels d'interprétations d'une autre part.

A partir de cette crise, il me semble trouver une autre voix méthodique, en prenant le coran, sunna comme des références, avec la concertation du patrimoine politique islamique.

C'est avec cette initiative que nous pouvons établir cette voix, pour mieux interpréter notre monde.

Mots clés: méthodologie occidentale, positivisme, les valeurs,.....

مقدمة:

يكاد يجمع دارسوا العلوم الاجتماعية - في بداية القرن الواحد والعشرين - على وجود أزمة في البناء المنهجي للعلوم الاجتماعية الغربية، الأمر الذي انعكس سلباً على مسار المجتمع الغربي، فسيطرت المادة، و ساد الصراع على حساب الروحانيات و القيم الموجهة للفرد و المجتمع. و لما كانت أصول المنهجية العلمية و البحث فيها مستقى من الغرب ، آلت حالة المجتمع الإسلامي لنفس حتمية المجتمع الأول ، الأمر الذي يستدعي إعادة النظر في منهجية الغرب المعرفية و محاولة استبدالها بأدوات بحث جديدة مستقاة من التراث المنهجي الإسلامي الذي يراعي الخصوصيات و يقف عند الاستثناءات ، محاولاً إعادة قراءة الواقع الراهن المتعدد الأبعاد و المعقد بمنهجية حضارية بديلة جوهرها العودة إلى الذات و إعادة قراءتها و استخلاص أسباب نكوصها و البحث في سنن النهوض و الاستطلاح.

إشكالية الدراسة: تناقش الدراسة الإشكالية التالية:

❖ كيف يتم الانتقال من المنهجية الغربية ذات الأساس المادي إلى رؤية جديدة للمناهج

تكون نواة لاستعادة الدور الحضاري المفقود في البلاد الإسلامية ؟

فرضيات الدراسة: تستأنس الدراسة بالفرضيتين التاليتين :

الفرضية الأولى: تعاني علوم الإنسان و المجتمع في الغرب من أزمة على مستوى القواعد المنهجية و الإبيستمولوجيا، مما أنتج صراعات و إختلالات للإنسانية جمعاء.

الفرضية الثانية: يكون الإنعتاق من حتميات المنهجية الغربية من خلال الدعوة لمنهجية بديلة ذات أسس و قواعد محلية في سبيل تحقيق الإقلاع الحضاري المنشود.

أولاً: قراءة في أزمة المنهجية الغربية :**1- تنامي التركة الوضعية :** تميزت العلاقة بين العلم و الدين -عبر تاريخ سيادة الكنيسة -

بوجود صراع حول الآليات المنهاجية التي وظفتها الكنيسة و دعوة العلم للتحرر منها ، و قد عبر عن هذا الصراع "إميل بوترو"، Emile Boutroux بقوله أن الصراع المنهجي هو حالة وصفية لطبيعة العلاقة بين العلم و الدين ، و أن محاولة تحرير العلم من الدين في أوروبا، لا يعني أن العلم كان موجهاً ضد الإيمان ، بل يتعلق الأمر كما يرى "أحمد أمزيان" أن العلم امتد ليناقش قوالب التفكير الديني التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية ، و بالتالي فأعمال فلاسفة القرن السابع

عشر و الثامن عشر هي محاولات فلسفية لتجاوز القوالب المنهجية للتفكير الديني المسيحي و المناداة بضرورة قيام المنهج الوضعي⁽¹⁾.

أ- في تعريف الاتجاه الوضعي: تعبر الوضعية عن ذلك التصور تجاه الكون ، الحياة و الإنسان ، و قد اقترن تأسيسها بالمفكر الفرنسي " اوغست ، كونت "، "August, comte" في القرن التاسع عشر .

تشير الوضعية إلى طريقة تفكير أو إلى إطار تحليلي / تفسيري للظاهرة الإنسانية أو الطبيعية مستدعية في سبيل تكوين منهجها كل الاتجاهات و المذاهب الإنسانية (الفلسفات المادية: الليبرالية/ الماركسية) و التي تقوم على استبعاد النظرة الدينية في مجموع النشاط المعرفي الإنساني⁽²⁾.
تقوم الرؤية الوضعية على الأسس التالية⁽³⁾:

- ❖ إخضاع الظواهر الاجتماعية و الأحداث التاريخية لقوانين ثابتة ، شأنها في ذلك شأن العلوم الطبيعية.
- ❖ الاعتماد على الملاحظة و التجربة و المقارنة عوض الخيال و التأمل بهدف الوصول لدرجة اليقين.

ب- في الأسس المنهجية للاتجاه الوضعي : يستعين المنهج الوضعي بالمنهجية التالية :

- الحواس مصدر المعرفة: تعد الحواس هي نقطة تعبر عن مستويين في الاتجاه الوضعي:
- وسيلة للتحرر من أساليب التفكير الديني -الكنسي.
- اعتبار الحواس السلطة المرجعية في بناء المنهج العلمي .
- تأثير منهجية العلوم الطبيعية على قيام العلوم الإنسانية : لقد حاول المؤسسون الأوائل للاتجاه الوضعي إسقاط منهجية العلوم الطبيعية القائمة على الملاحظة و التجربة على العلوم التي تدرس الإنسان و بالتالي تأكيد وحدة العلم من خلال وحدة الخطوات المنهجية المتبعة .

اتجهت الوضعية من خلال تأكيدها على وحدة المناهج، لإيجاد حل لتلك الازدواجية المنهجية التقليدية: حيث وظفت عناصر الملاحظة و التجربة للبرهنة على الظواهر الطبيعية و المنهج اللاهوتي في التعامل مع قضايا العلوم الإنسانية.

ج- نتائج الأسس المنهجية للوضعية على العلوم الإنسانية : تتمثل في

○ تكون "التجربة" أقرب للإيديولوجيا منها للأداة المعرفية و بالتالي يتجاوز العلم حدوده ليشمل مجال الإيديولوجيا (أداة تبرير) بعدما كان اللاهوت فيما سبق إيديولوجيا سرعان ما ورثها العلم تحت مظلة الوضعية. .

○ بروز ظاهرة الاختراعات: يمكن استنتاج ظاهرة اختزال السلوك الإنساني من خلال توظيف المنطلقات المنهجية للاتجاه الوضعي، فأصبح الباحث في علم الاجتماع يعاني "مشكلة الاختراعات":

■ **على المستوى الفيزيقي**: يقوم الاتجاه الوضعي على عدم الاعتراف بالجوانب الفيزيكية للإنسان (الشعور الجوانب الروحية) حيث تحاول الوضعية إعطاء تفسيرات مقبولة عن حياة الإنسان في بعدها الداخلي و الخارجي من دون إعطاء الأهمية للجوانب التي لا تضبطها القواعد الوضعية.

■ **على المستوى الديني و الأخلاقي**: تعطي الوضعية -في تعاملها مع الظاهرة الدينية و الأخلاقية- بعدا حسيا مستبعدة في ذلك كل تأثير للعناصر الغيبية ، فالدين يشكل ظاهرة اجتماعية لا يمكن إنكارها غير أنه في نفس الوقت ، لا يمكن الاعتراف بالظاهرة نفسها خارج حدود المجتمع ، فكانت دعوة الوضعية لحصر الظاهرة الدينية في المجال الواقعي الملموس.

يمكن القول -بحسب هذا المعنى- أن الإنسان قد حل محل الله ، محاولا دائما القضاء على هذا التناقض بين الواقعي و الغيبي في إشارة إلى ذلك الصراع الذي كان قائما بين الكنيسة و الحركات العلمية الجديدة التي أنتجت الاتجاه الوضعي .

2- سيطرة التزعة السلوكية (حقل العلاقات الدولية أنموذجا):

تعود البدايات الأولى لتأثير الاتجاه الوضعي في حقل العلاقات الدولية إلى المدرسة السلوكية التي هيمنت على حقل الدراسات السياسية عموما و حقل العلاقات الدولية خصوصا في خمسينيات القرن الماضي، حيث انطلقت من الافتراضات التالية⁽⁴⁾:

- توظيف العقل لاكتشاف قوانين الظاهرة السياسية .
- الطريق المؤدي للقانون يكون عبر الملاحظة و التجربة.
- فصل الذات عن الموضوع .

نستنتج من الافتراضات الأساسية للتزعة السلوكية أن الوضعيين يرون أن الظاهرة السياسية الداخلية أو الدولية تحكمها قوانين تجعلها تتكرر عبر الزمن ، و هي مستقلة عن الذات الإنسانية ،

فلا تخضع لعواطف الإنسان أو قيمه ، بل يمكن اكتشاف قوانينها عن طريق العقل باستخدام الملاحظة و التجريب أين تعد الدراسات الأمنية من أهم الكتابات التي انتشرت في مرحلة ما بعد الحرب الباردة و التي سيطرت عليها التزعة السلوكية.

أ- متغيرات العلاقات الدولية و التزعة السلوكية: يتضمن حقل العلاقات الدولية العديد من المتغيرات المصبوغة بالمؤثرات السلوكية، بمعنى إخضاع الظاهرة السياسية لنفس قوانين الظاهرة الطبيعية، و من أهم المتغيرات، نجد:

- **الأمن القومي و التعاون الدولي**: يمثل كل من "الأمن القومي" و "التعاون الدولي" متغيرات جوهرية في حقل العلاقات الدولية ، إذ توحى الدراسات المنجزة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية و التي تناولت قضايا الأمن القومي أو التعاون الدولي (كتابات ريمون أرون، "Rymond , Aron": "الحرب و السلم : نظرية في العلاقات الدولية") أو حتى تلك الدوريات المهمة بمختلف أشكال التعاون الدولي ، أنها اعتمدت على المناهج الكمية المبنية على التجربة و الملاحظة .

لقد نقل خالد موسى المصري ، من "كينيث والتز" Kenneth, waltz في الأول : الكيفيات النظرية لبناء النظرية السياسية الدولية في إطار التزعة السلوكية ، و تتحدد كما يلي⁽⁵⁾:

- صحيحة و محددة
- ليست نسبية: بمعنى أنها تطبق في كل مكان و ليست مقتصرة على مكان معين.
- قابلة للتصديق أو النفي.
- ذات قوة كبيرة في الشرح.
- منسجمة مع ما سبقها من معرفة علمية.

تبين كيفيات بناء النظرية وفق التزعة السلوكية أن هناك هيمنة خطوات المنهج العلمي المطبق في العلوم التجريبية أو التطبيقية ، بما يتضمن من قواعد و أصول علمية مستقاة من الرياضيات ، الفيزياء و علم الأحياء بدليل أن تصميمات النظام السياسي —بحسب "ديفيد استون"، David, Easton — مستوحاة من جسم الكائن الحي ، الأمر الذي يجعل المنهجية العلمية في العلوم الاجتماعية عموماً و العلوم السياسية خصوصاً تحت تأثير تيار المدرسة السلوكية التي ظهرت في خمسينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث عمد معتنقوها لإحداث "ثورة" علمية في مجال الدراسات الإنسانية و الاجتماعية، إذ تم استبعاد كل نزعة ميتافيزيقية أو دينية من

البحث في ميدان علوم الإنسان و بعثها لمقاربة اليقين من خلال البحث عن "علمية" هذه العلوم عن طريق البحث في السلوك الإنساني و جعله الوحدة الأساسية في التحليل و ما عداه دجل و غيبات .

لم تشمل التزعة السلوكية متغيرات السياسة الدولية، بل امتد تأثيرها لمجمل نظريات العلاقات الدولية، حيث يتم استعراض المتغيرات الأساسية لأهم نظرية من نظريات العلاقات الدولية:

- **النظرية الواقعية (الدراسات الأمنية):** إذا انطلقنا من تعريف إجرائي بسيط لمفهوم الأمن بأنه شعور الفرد بعدم التهديد في قيمه و حياته و بانقسام العالم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لمعسكرين ، بدأ التركيز على الدراسات الأمنية كمدخل تحليلي لكيفيات حماية الأمن القومي الأمريكي من خطر الشيوعية ، كما استحوذ موضوع : "السلاح النووي" بما يتضمنه من قضايا : الردع ، الضربة الأولى، توازن الرعب " على اهتمام الكثير من دارسي السياسة الدولية في إطار النظرية الواقعية .

إن الجدير بالملاحظة في هذه الأدبيات هو الكيفيات المنهجية المتبعة في موضوع "الدراسات الأمنية" إذ يمكن القول أن هناك العديد من المناهج المستحدثة على ضوء المدرسة السلوكية لدراسة الظاهرة السياسية الدولية في بعدها الأمني ، ففضلا عن المنهج الكمي ، نجد عدة مناهج أخرى كالمنهج المقارن ، منهج دراسة حالة ، و مدخل مستويات التحليل الذي يعد من الإسهامات النظرية الواقعية في المنهجية ، كما استعان هؤلاء الدارسين بالإحصاء و الأرقام في مقاربتهم للظاهرة الصراعية أو أثناء تناولهم لمسائل التعاون الدولي.

ب- الانتقادات الموجهة لنظريات العلاقات الدولية : شهدت مرحلة ما بعد نهاية الحرب الباردة بروز رؤى و تيارات نظرية ناقدة للترعة الوضعية أو السلوكية ، و ذلك بحكم ما يلي :

أولاً: لم تستطع نظريات العلاقات الدولية تقديم تنبؤات بخصوص نهاية الحرب الباردة بالطريقة التي انتهت بها .

ثانياً: ظهور جملة من الكتابات الأكاديمية أخذت صفتي :

○ **حديث النهايات:** نهاية التاريخ، نهاية الدولة، نهاية الإيديولوجيا، نهاية الحدود.....نهاية الإنسان.

○ **حديث المابعديات:** ما بعد الماركسية ، ما بعد الحداثة ، ما بعد الرأسمالية ،

توحي هذه الكتابات المصاحبة لنهاية الحرب الباردة بوجود خلل منهجي أدى بفقدان نظريات العلاقات الدولية لقدراتها التفسيرية و التنبؤية و بالتالي تراجع المنظومة النظرية الغربية بفعل التزعة الوضعية ذات الأساس المادي عن تقديم حلول لأزمات و صراعات راهنة أو حتى التنبؤ بمصير العلاقات الدولية.

يؤول الأمر أمام هذا القصور إلى البحث عن منهجية بديلة قوامها مصادر أخرى و كفاءات تشغيل جديدة و حتى تطبيقات مغايرة أثبت التاريخ البشري فعاليتها .

ثانيا: الدعوة للمنهجية البديلة :

1- شروط قيام المنهجية الإسلامية: تدرج عملية بناء منظور تفسيري لعلم العلاقات الدولية

ضمن الرؤية الإبداعية التأصيلية المنسوبة للنسق الإسلامي (6) و يستلزم النشاط الإبداعي - في إطار النسقية الإسلامية - الشروط التالية :

المتطلبات الإعتقادية: تتمثل في جملة القناعات الأساسية (عقيدة) و التي تبني عليها شخصية المبدع وإمكاناته و تعمل في ضوئها و تقيم على أساسها هذه المتطلبات بشقيها: التصديق العقلي (العناصر الإيمانية) و الجانب الثاني (العبادات).

● المتطلبات العلمية: يشمل المطلب العلمي على اختيار المنظورات و المناهج في طلب المعرفة التي تستند لحقائق الوحي و حقائق الخلق ، و قد صاغت الحضارة الإسلامية - في إطار سيرورتها التاريخية - أنموذجا رائعا في تحصيل العلم و الذي يظل قابلا للاستئناف و التوظيف ، خاصة على ضوء التراكم المعرفي المذهل في الواقع الحالي و التقدم التكنولوجي المتسارع و المشهود.

يؤكد المنشغلون بالظاهرة الاجتماعية أن هدف العلم هو بناء منظورات تفسيرية ، يوظفها العلماء للإجابة عن إشكالات يطرحها المجتمع في مختلف الأبعاد (السياسية ، الاقتصادية و الاجتماعية...)، فالمنظورات هي المنتج النهائي للنشاط العلمي ، وتكتسي أهمية في تحديد "هوية" (7) أي علم من العلوم ، فدور المنظور أكثر أهمية من دور المنهج العلمي على خلفية أن المنهج العلمي هو أداة منهجية مشاعة بين كل العلوم في حين أن المنظور (علم العلاقات الدولية) هو الذي يحدد الموضوع و أدواره و مساره بعكس المنهج العلمي الذي يعد أساسا واحدا لكل العلوم حتى و إن اختلفت أدواته باختلاف الظاهرة المدروسة.

يعتبر البناء النظري من أهم الأعمال الإبداعية لأي باحث، ذلك لأن التنظير العلمي يتطلب القدرة على إدراك و تصور العلاقات بين مختلف المتغيرات من خلال منظور قادر على التفسير ، و أن

موضوع علم العلاقات الدولية -ضمن منهجية بديلة⁽⁸⁾- يسعى لتكوين رؤية منهجية(نسق فكري) تكون بمثابة الإطار المنظم لمحمل الحقائق و النتائج التي توصل إليها الباحثون في حقل العلاقات الدولية، و ذلك بطريقة دالة و ذات معنى .

يتميز الإطار النظري ببعدين :

- البعد الأمبريقي: بمعنى الاعتماد على معطيات الواقع.
 - البعد التنبؤي : و الذي يساعد على فهم مستقبل الظاهرة الدولية و لو من خلال تعميمات احتمالية. و الأصل في عملية إنتاج المنظورات البديلة لتحليل الظاهرة الاجتماعية عموما و الظاهرة الدولية خصوصا لا يعني استبدال المنظور الإسلامي بالمنظور الغربي ، ففي ذلك استبدال متحيز لإطار بإطار -كما يرى "علي ، ليلة"(معاشر)⁽⁹⁾ ، فهذا العمل المنهجي يقوم على تطوير منظور يقدم الحقيقة الإنسانية والاجتماعية من زاوية جديدة مضافة على النظرة الغربية القائمة و المسيطرة فمن خلال التفاعلات بين المنظورات الحضارية يمكن التوصل لأنسنة البناء المنهجي .
- إذا اعتبرنا أن المنظور يمثل العنصر المحوري في العملية البحثية، فإن ذلك يستدعي البحث في الخصائص التالية⁽¹⁰⁾:

- ضرورة توافق منظورات دراسة الظاهرة الدولية مع الحقائق المعروفة ، و أن هذه الخاصية تمثل مدخلا ضروريا لتحقيق شرعية المنظور و قبوله من طرف الجماعة البحثية.
- عدم وجود تناقض على مستوى تركيبة المنظور.
- ضرورة وضوح التفسيرات التي تقدمها المنظورات ، الأمر الذي يساعد في إنشاء فرضيات فاحصة للتفسيرات المقدمة ، و ذلك بطريقة امبريقية ، و أن المنظور الذي لا يخضع للتجريب لا يعتد به.

أ- مكونات المنظورات : تتمثل مكونات المنظور في :

- المفاهيم، Concepts : هي صور أو مدركات ذهنية.
- المتغيرات، variables: يمكن للمفهوم أن يتخذ أكثر من قيمة واحدة على مقياس متدرج ، فيسمى "متغيرا".
- القضية، proposition: عبارة تدور حول مفهوم أو متغير أو أكثر ، و تتخذ القضية شكل :

بديهية، "Axiom": مقدمة أولية، مسلمة مصادرة، "postulate" "نتيجة برهانية"، "theorem" تعميم امبريقي "empirical generalization"، "فرضا" "hypothesis" و"الافتراضات" "Assumption" و تتضمن الافتراضات ثلاثة أنواع:

- الافتراضات العامة: المتصلة ببناء العلم.

- الافتراضات الكامنة: و المتعلقة بشخص المنظر.

افتراضات المجال: المتصلة بالأداء العلمي في أي من مجالات العلم، و في حالة علم العلاقات الدولية، ما يحتويه هذا الحقل من متغيرات يتم ربط القضايا بدورها لتكوين المنظورات. بمعنى إذا كانت المفاهيم بمثابة قوالب الطوب التي تستخدمها القضايا، فإن القضايا هي قوالب الطوب لبناء المنظورات، كما إن بعض المنظورات قد تتكون من فضية واحدة.

يمكن القول أن مكونات المنظورات (فروض، مسلمات و مصادرات) و التي يتم استخدامها في تفسير الحقائق و تكوين التعميمات الأمبريقية التي مصدرها عقل الباحث و إبداعه و قدرته على تصور العلاقات بين تلك المشاهدات الواقعية و التعميمات الأمبريقية و تحليل الروابط فيما بينها، و عليه، فخيال الباحث هو جزء لا يتجزأ من عملية البناء المنهجي للمنظورات.

يؤدي الخيال العلمي في بناء المنظورات لأن يتحول العلم لسوق مفتوحة لحرية المشروعات النظرية، حيث تصبح النظرية بمثابة السلعة بمنظور الاقتصاد الكلاسيكي: فكلما وجد طلب على نظريات من نوع معين، كلما كان من صالح المستهلك السماح بأكبر قدر ممكن من المعروض منها.

ب-تعريف المنظور القيمي: ترى "منى، أبو الفضل"¹¹ أن المنظور يشير إلى مجموعة من الأسئلة الكلية- النهائية و التي تنتظم في منظومة متكونة من:

الأنطولوجي: ماهية الوجود.

الإبستمولوجي: أصول المعرفة: المعرفة الصحيحة و غير الصحيحة.

الأكسيولوجي: معايير القيم التي على أساسها تؤسس الأحكام على الصلاح أو الفساد.

الإسكاتولوجي: قضية الزمان و الحياة و ماوراءها الغيب و الشهادة.

يمكن القول أن عدم القدرة على تحديد منظور (البحث عن إطار منهجي معين) في حقل ما، معناه الذهاب في رحلة من دون مرشد، و بدون هذه الطريقة التي يحددها المنظور للعلم، تضع الكثير من الخبرات و الجهود. أما نادية محمود مصطفى، تعرف المنظور على أنه "رؤية سائدة في مرحلة ما

عن طبيعة الظاهرة الدولية، و هو يشير إلى وجود نوع من الإنفاق حول سمات الظاهرة الدولية و أبعادها الأساسية و حول الأسئلة التي تثيرها حول كيفية دراستها والبحث فيها.

أما كلمة "القيم" فتشير إلى ذلك النسق الفكري المرتبط بتحليل الظاهرة الاجتماعية ، حيث يمثل النسق القيمي نظاما منهاجيا متكاملا قابلا لأن يوظف لدراسة -ليس فقط الظاهرة السياسية -بل سائر أبعاد الظاهرة الاجتماعية- العمرانية؛ و عليه فالمنظور القيمي يشكل إطارا معرفيا تتولد ضمنه المناهج ، و يمكن من داخله "توظيف مناهج قائمة و استنباط أخرى جديدة دون القيام بعملية تكيف و ترقيع من الخارج"⁽¹²⁾.

تقدم نادية مصطفى توصيفا للمنظور القيمي، بأنه: «غاية، مآل، محطة نهائية و هو نتاج تراكم معرفي و نظري وتحليلي»⁽¹³⁾.

2- المصادر و الأسس: يستند المنظور القيمي لجملة من المصادر تتميز بخصائص معينة، فلكل مصدر مدخل خاص به، كما أن هذه المصادر مترابطة ببعضها البعض لتؤكد اكتمال البنية المنهجية للمنظور القيمي و ذلك بعد تناول وظائف المنظور و مفرداته. طرحت منى أبو الفضل⁽¹⁴⁾ كيفية التعامل مع مصادر التنظير، إذ ميزت بين اتجاهين للتعريف بهذه المصادر:

الاتجاه الأول: يرى أن التراث الإسلامي يتضمن النص و السنة و كل ما أنتجه العقل المسلم من خلال تفاعله مع هذين المصدرين الأساسيين و الواقع.

الاتجاه الثاني: الذي يميز بين القرآن الكريم و السنة النبوية، فلا يجوز إطلاق لفظ التراث عليهما من جهة و غيرهما مما هو نتاج العقل الإنساني المسلم و ذلك بهدف إخراج النص عن الجدال الدائر حول التراث و المعاصرة، و عليه يعرف علي جمعة التراث الإسلامي بأنه: "المنتج البشري المنقول - الشفوي و الكتابي - للأمة الإسلامية عبر مائة عام من الزمان"⁽¹⁵⁾.

تتمثل مصادر المنظور القيمي في:

أولاً: المصادر الأصلية: تنقسم المصادر الأصلية إلى القرآن الكريم و السنة النبوية

1- القرآن الكريم: تشمل الوحي الذي على رأسه القرآن الكريم: الترتيل المحفوظ للآيات التي تم تدوينها لفظا و حرفا في صحف مطهرة، أما المصدر الآخر للوحي يتمثل في النبوة و ما تحويه من أحاديث صحيحة و سيرة موثقة تعد تبينا للقرآن الكريم.

يتميز الخطاب القرآني بالميزات التالية:

- يعد القرآن الكريم "خطاباً" يتم الرجوع إليه لتدبر آياته ، في حين أن التوراة و الإنجيل تعد نصوصاً قابلة للمراجعة في الغرب.
- يتضمن القرآن الكريم عناصر العملية الاتصالية ، مما يساعد على أداء رسالته.
- تجمع آيات القرآن الكريم بين الجوانب النظرية و العملية.
- تحقق عملية تكامل هذه العناصر إمكانية تحليل آيات القرآن الكريم إلى: مبني، معني، مبعث و مقصد، و يكون التعامل مع القرآن الكريم كمصدر حي و حيوي في عملية التأصيل المنهجي للمنظور القيمي.
- تستوجب عملية التأصيل المنهجي، تأسيس "إطار مرجعي"⁽¹⁶⁾ يجعل من القرآن الكريم نواة و مصدر لهذا الإطار، بما يتضمنه من عناصر هي:
 - التوحيد: التي تقوم عليها المتغيرات التأسيسية الأخرى.
 - الاستخلاف: هو الغاية من السلوك البشري و مقياس الأمانة.
 - الأمة: تمثل وعاء الاستخلاف و أدواته.
 - الشرعة: تأتي لتؤمن للأمة وسائط بلوغ المهمة.
- يمثل هذا الإطار المرجعي خلفية تأسيسية، مصدرها الرؤية القرآنية المتميزة عن الخلفية المادية ، فهي منبثقة عن عقيدة التوحيد التي تنتظم حولها بقية المفاهيم الأخرى و يستند إليها المنظور القيمي من خلال:
- القيم التي تشكل البواعث، المنطلقات، الدوافع و الأبعاد المعنوية للفعل الإنساني و أهدافه، و التي يطلق عليها مصطلح: "الثقافة".
- الجماعة الحاملة لهذه المنظومة و المتفاعلة معها عبر إطار الزمان والمكان.
- مسالك تؤسسها الجماعة ، و هي متغيرة في الزمان ، كما تتفاوت فيها الجماعات بقدر تمكنها من بيئتها المادية وبقدر إدراكها للأسباب الفنية و العقلية.
- القرآن الكريم و عملية التنظير المنهجي: يرى سيف الدين ، عبد الفتاح⁽¹⁷⁾ أن التنظير هو عملي منهجية ممتدة يؤدي بنا مع التراكم إلى بناء منظورات في سياق الأطر الكلية التي يحددها القرآن ، بمعنى أن النص هو المصدر التأسيسي لعملية التنظير و الضابط المنهجي لها.
- يضمن التنظير —في علاقته بالقرآن الكريم— أربعة مستويات أساسية هي:

المستوى الأول: يهتم بتأسيس الرؤية الكلية و التي يتم اشتقاقها من النص القرآني و صياغتها لتشمل عناصر التأسيس العقدي الذي يؤكد على مكانة كل من الإنسان ، الكون و الحياة في بناء العمارة الحضارية ، كما تشمل هذه الصياغة مقاصد الشريعة الكلية و الأساسية ، إضافة إلى جوهر السنن الكونية ، التاريخية ، الاجتماعية و النفسية التي هي أساس الحركة الحضارية.

يمكن الاستفادة من عناصر الرؤية الكلية في بلورة منظور يسهم في بلورة جديدة لعملية التنظير، بل أكثر من ذلك إذ يطرح رؤيته المنهجية و التصورية للإشكالات المتصلة بالواقع الدولي في تشابكه، تفاعله و تعقده.

المستوى الثاني: يعنى بالمفاهيم و كيفية بنائها ، لأن المفاهيم هي المتغيرات الأساسية في عملية البناء المنهجي و التنظيري و إذا كانت المفاهيم (منظومة القيم) تمثل جملة مفاهيم ، فإن الأطر المرجعية تضع هذه المفاهيم في مواقعها ، و عليه، فالعلاقة وثيقة بين الإطار المرجعي (القرآن الكريم و السنة النبوية) و المفاهيم (منظومة القيم): يقوم الإطار بتنظيم المفاهيم و ضبطها ، في حين أن دعائم الإطار تقدمها المفاهيم.

المستوى الثالث: يساهم المستوى الثالث في تقديم الخبرة التاريخية و المستوحاة من القرآن الكريم كنماذج لتحقيق مقصد العبرة كهدف منهجي، فيوضح لنا مثلاً النموذج الفرعوني في كيفية التعامل مع الرعية ، مع عناصر الأقليات داخل المجتمع السياسي (بنو إسرائيل).

كما يشير نموذج "ذي القرنين" لمفاهيم الأمن بكل تفرعاته العقدية و الاستعداد المادي الداخلي و الخارجي؛ فتفيد هذه التاريخية المصاغة في شكل قصص قرآني في تأصيل علائق المسلمين فيما بينهم و بغيرهم، كما تزود صناع القرار بعناصر إعداد القوة بكل مضامينها المادية و المعنوية.

المستوى الرابع: يوضح هذا المستوى أن عملية التنظير-بالرغم من أهميتها-إلا أنها لا تطلب لذاتها ، بل إن الإجابة عن إشكالات الواقع هي جزء لا يتجزأ من عملية التنظير .

2- السنة النبوية كمصدر لتأسيس المنظور القيمي: تعرف السنة النبوية على أنها كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه و سلم أو تعلق به-غير القرآن- من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقي⁽¹⁸⁾.

تمثل السنة النبوية البيان العلمي و التطبيقي للقرآن الكريم، و نستخلص ذلك من قول أم المؤمنين "عائشة رضي الله عنها، حين سئلت عن خلق رسول الله (ص) فقالت: "كان خلقه القرآن"⁽¹⁹⁾.

3- المصادر المشتقة (التراث): تتكون من رافدين:

الأول: ينحصر في التراث الحضاري بمختلف إبداعاته و هو نتيجة تفاعل في الزمان و المكان.

الثاني: هو نتيجة الخبرة التاريخية و محصلة تفاعل الأمة التي أوجدها الإسلام. يعد التاريخ بمثابة الرافد الأساسي للحديث عن الخبرة الإسلامية، فهو عقل الأمة، وعيها وتجربتها في التعامل مع السنن الإلهية في الكون، الحياة و الإنسان.

أ- الأسس الموضوعية لدراسة التاريخ الإسلامي : يرى مصطفى منجود⁽²⁰⁾ أن التاريخ الإسلامي يمثل خلفية مصدريّة تساعد على معرفة أحوال المسلمين و علاقاتهم الخارجية مع غيرهم و ذلك من خلال:

-يشير مفهوم العلاقات الخارجية لوجود رؤية عامة ضابطة لسلوك المسلم الدولي(حالة الحرب- حالة السلم) تجاه غيره من المخالفين له في العقيدة.

تمثل هذه الرؤية منطلقاً أساسياً لنشر الدعوة ، و قد حددت آيات القرآن الكريم و أحاديث النبي (ص) المبادئ العامة لهذه الرؤية ، غير أنه بالرجوع إلى مجمل الخطب و الرسائل و العقود الصادرة عن عهدي النبوة و الخلافة الراشدة يمثل ضرورة منهجية لمعرفة طبيعة الإدراك القيادي للعلاقات الخارجية و معرفة الإطار التاريخي لظروف الدعوة.

-ترتبط عملية تحديد العلاقات الخارجية بمعرفة حالي هذه العلاقات :

- حالة التعامل السلي و ما يتعلق بها من علاقات سياسية بين المسلمين و غيرهم.
- حالة التعامل القتالي و ما يلحق به من أساليب استخدام القوة أو حالة الهدنة و ما تقتضيه من احترام للعقود المؤقتة أو الدائمة.

-كيفية التعامل مع غير المسلمين ممن يشملهم الخطاب الدعوي :

أهل الذمة: من اليهود ، النصارى و المجوس .

المستأمنون: الذين دخلوا في أمان المسلمين وفق عقود الأمن.

الآخر المشرك: الذي يستوجب قتاله.

فصل الفقهاء في بيان ما لهذه الفئات من حقوق و ما عليهم من واجبات و ذلك وفق النص القرآني، السنة النبوية و خبرة التاريخ الإسلامي.

3- كفاءات التشغيل و التشغيل : تتمثل نماذج تشغيل المنظور القيمي في :

أ- رؤية العالم: هي تصور تكونه جماعة بشرية ما عن نفسها و عن التجمعات الأخرى، لتتشكل في الأخير العلاقات الدولية، حيث بلور المسلمون الأوائل رؤيتهم للعالم من خلال التقسيم الفقهي للمعمورة: دار الإسلام دار الحرب و دار العهد .

ب-الأنموذج المقاصدي : يساهم توظيف الأنموذج المقاصدي في استخلاص المعاني و الحكم و الغايات التي أرادها الشارع بخصوص ما يلي :

- حفظ الدين: الإهتمام بالمرجعية الكلية التي هي أصل حفظ النظام العام في المجتمع.
- حفظ النفس: توفير الوسائل الفعالة و الملائمة لحفظ دماء الأفراد و إطالة عمر السلام قدر المستطاع .
- حفظ العقل: الإهتمام بصناعة الإنسان باعتباره محور التنمية و التطور و ذلك عن طريق الاستثمار الحقيقي في التعليم ، الثقافة و الإعلام.
- حفظ النسل: التعمير و الاستخلاف في الأرض.
- حفظ المال: توزيع المال في ميادين التنمية .

ج-السنن الحضارية : حيث تتضمن السنن الحضارية مجمل القوانين الكونية التي تتحرك بموجبها الحياة و تضبط جزئياتها و متحكم مفرداتها ، و عليه ، يتفق الفعل السنني نشوءا و أفولا مع معاني : الاتساق الغائية و الدقة .

ثالثا: المنهجية البديلة و تحقيق الهوية الحضارية: يعيش الإنسان في بداية الألفية الميلادية الثالثة عصرا حافلا بإنجازات و وعود من ناحية و بأنواع من المعاناة و الأخطار التي تهدده من ناحية أخرى ، و يقف هذا الإنسان متأملا في نفسه و فيما حوله بمعن النظر و يعمل الفكر في كيفية رفع المعاناة عن كاهله ، و دفع الأخطار التي تهدده و سائر المخلوقات الحية على وجه كوكب الأرض و يصل بهذا التأمل إلى ضرورة استشعار الحاجة الماسة إلى الدين و استلهاهم قيم الحضارات الإنسانية المثلى و تعميق الوعي الروحي من أجل سلامة الجنس البشري و كرامته.

و إذا كان عصرنا اليوم-الآخذ بالامتداد إلى الغد- هو عصر العلم و التكنولوجيا ، فإن قضية أساسية بدأت تبرز في عالمنا المعاصر تتعلق باستخدام المعرفة العلمية و تركيز النظر على البعد الأخلاقي في هذا الاستخدام ، فأصبح الحديث عن "القيم" ملازما للحديث عن التنمية و استخدام التقنية ، و على هذا الأساس ، فالحاجة ماسة -في الوقت الراهن- لمحاولة السيطرة على التقنية و تحفيزها داخل إطار إنساني بهدف المساهمة في تحقيق الحياة الكريمة لجميع الشعوب و الأجيال القادمة داخل الفهم العالمي و بهدف غرس القيم الاجتماعية و المعنوية و الروحية لموازنة التقدم المادي و ترشيد استخدامه .

إذا اعتبرنا أن العلوم الطبيعية قد سيطرت على كل مناحي الحياة و أوشكت القيم المادية فيها أن تتحكم وحدها بمصير الكون و الإنسان ، حيث سلب الإنسان مزية أساسية تتمثل في انصرافه عن قيم الروح ، و كانت النتيجة أن العلم و التقنية سارا في إطار الحضارة الغربية عكس القيم و الأخلاق التي أسسها في التاريخ الإنساني ، الأنبياء ، المصلحون و العقلاء.

يرى "منير شفيق" (معاصر) أن الطريق الذي سار عليه التطور العلمي و التقني في الحضارة المعاصرة اتجه نحو التضاد بين الطبيعة و البيئة و الحاجات الفطرية للإنسان مما هدد موارد طبيعية و حيوانية عديدة بالنفاذ و أضر بالبيئة فلوثها و أدخل بتوازنها ووضع الكائن البشري في ظروف معاشية مناقضة لروحه و نفسيته و فطرته و نموه العام ، كل ذلك بسبب الاتجاه في التطوير العلمي و التقني الذي تحكمه أهداف العنف و الربح و الاستهلاك المادي⁽²¹⁾.

خلاصة:

يمكن القول في الأخير ، أن تأثيرات التزعة الوضعية على علم العلاقات الدولية قد أفضى لحالة من الاضطراب و الفوضى النظريين إلى درجة جعلت العديد من علماء التنظير ينتهون للقول باستحالة اعتماد الإطار النظري الغربي ذي التزعة الوضعية و ذلك بحكم عدم قدرته على تقديم رؤية دقيقة للوضع الدولي بعد نهاية الحرب الباردة .

يمثل المنظور القيمي الإسلامي الرؤية المنهجية البديلة ، خاصة أنه يقوم على أسس غير أسس المنهجية الغربية ، إذ يستقي أسسه من القرآن ، السنة و الخبرة التاريخية الإسلامية.

يتأسس المنظور القيمي الإسلامي على نماذج تشغيل يمكن الاستعانة بها كأدوات منهجية فعالة في تحليل الظاهرة الصراعية الدولية ، حيث تم إستيقاء هذه الأدوات من تفاعلات الفكر السياسي الإسلامي التي سادت في مرحلة معينة في التاريخ البشري ، لامست الإنسانية من خلالها فترات السلم ، التعايش و الحوار بين "الأنا" و "الآخر".

تمثل كل من رؤية العالم ، الأنموذج المقاصدي و السنن الحضارية القواعد النظرية المؤسسة للمنظور القيمي الإسلامي ، كما يمثل تاريخ الدولة العثمانية الأنموذج التطبيقي لدراسة دور الدولة الإسلامية في النظام الدولي

الهوامش :

- (¹) محمد ، محمد أمزيان ، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعارية، ط4 (واشنطن : المركز العالمي للفكر الإسلامي، 2008) ص 25.
- (²) مرجع سابق ، ص 15.
- (³) خضر ، زكريا ، نظريات سوسيولوجية (دمشق: الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع ، 1998) ص 27 .
- (⁴) خالد موسى ، المصري ، الوضعية و نقادها في العلاقات الدولية (دراسة نقدية للنظريات الوضعية) ، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية و القانونية ، المجلد 30 ، العدد الأول ، 2014 ، ص 325 .
- (⁵) مرجع ، سابق ، ص 326 .
- (⁶) رمزي ، عبد القادر ، مفهوم الإبداع في النسقية الإسلامية ، مجلة إسلامية المعرفة ، السنة الحادية عشر ، العدد 41 ، صيف 2005 ، ص 13 .
- (⁷) عبد الباسط ، عبد المعطي ، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع (الكويت : المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، 1998) ص 10.
- (⁸) Mona, Abul-fadl, Paradigms in political science revisited: critical options and Muslim perspectives, The American journal of Islamic social sciences , vol 6, No 1, 1989, P 123.
- (⁹) علي ، ليلة ، مشروعية بناء علم الاجتماع من منظور إسلامي ، في مجموعة من الباحثين ، علم الاجتماع من منظور إسلامي (القاهرة: مركز الدراسات المعرفية ، 2007) ص 120 .
- (¹⁰) مصطفى ، عشوي ، العلوم الاجتماعية بين التنظير العلمي و التنظير الإيديولوجي ، في : نصر ، محمد عارف ، قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية (القاهرة : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1996) ص 246 .
- (¹¹) شيماء ، بهاء الدين ، قراءة في العطاء المعرفي للأستاذة الدكتورة منى أبو الفضل ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد 135 ، مارس 2010 .
- (¹²) منى ، أبو الفضل ، المنظور الحضاري و خبرة تدريس النظم السياسية العربية ، (في) نادية ، محمود مصطفى ، سيف الدين ، عبد الفتاح (إعداد وإشراف)، دور المنهجية الإسلامية في العلوم الاجتماعية : حقل العلوم السياسية نموذجاً (القاهرة: المركز العالمي للفكر الإسلامي ، 2000) ص 118.
- (¹³) نادية ، مصطفى ، المنظور الحضاري و العلوم الاجتماعية و الإنسانية ، (في) نادية محمود ، مصطفى ، سيف الدين ، عبد الفتاح و ماجدة ، إبراهيم (محررون) ، سلسلة قراءة في الفكر الحضاري لأعلام الأمة (2): التحول المعرفي و التغيير الحضاري : قراءة في منظومة فكر منى أبو الفضل (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية/دار البشير للثقافة و الإعلام، 2011) ص 3 .
- (¹⁴) منى ، أبو الفضل ، نحو منهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1996) ص 8.

- (¹⁵) علي جمعة ، كيف نتعامل مع التراث الإسلامي (في) معهد الدراسات المصطلحية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي "دورة تدريبية" (الرباط : معهد الدراسات المصطلحية ، 2000) ص ص 75 ، 76 .
- (¹⁶) يستخدم اصطلاح "إطار مرجعي" كاصطلاح في مناهج البحث و يشير بصفة عامة إلى الإطار النظري أو مجموعة الافتراضات الأساسية التي تشير إلى طبيعة الحياة و عملياتها و مسار حركتها التي يؤمن بها الباحث و يتخذها مرجعا أو مرشدا له في دراسته لظاهرة من الظواهر، أنظر:
- نادية ، محمود مصطفى ، مدخل القيم: إطار مرجعي لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام، ج2 (واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1999) ص 92.
- (¹⁷) سيف الدين ، عبد الفتاح ، القرآن و تنظير العلاقات الدولية في الإسلام (خبرة بحثية)، (في) نادية ، محمود مصطفى ، المداخل المنهجية للبحث في العلاقات الدولية في الإسلام (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1996)، ص 73 .
- (¹⁸) أحمد ، عبد الونيس ، شتا، السنة النبوية كمنهج لدراسة العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية (في) نادية ، محمود مصطفى ، المداخل المنهجية للبحث في العلاقات الدولية في الإسلام (القاهرة : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1996) ص 93 .
- (¹⁹) حديث شريف رواه الإمام أحمد و أبو داود و النسائي و مسلم.
- (²⁰) مصطفى ، منجود ، ضوابط التعامل مع التاريخ الإسلامي لدراسة العلاقات الخارجية في عصري النبوة و الخلافة الراشدة (في) نادية ، محمود مصطفى ، المداخل المنهجية للبحث في العلاقات الدولية في الإسلام (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996) ص 110 .
- (²¹) محمد ، الصمدي ، الرؤية الكونية للأخلاق عند النورسي و أثرها في بناء الإنسان ،النور للدراسات الحضارية و الفكرية، العدد 09 ، السنة الخامسة ، جانفي 2014 ، ص 106 .